قراءة في كتاب

منهج البحث والتَّحرّي في شأن الإمام المهدي (عج)

■ السيد محمد باقر السيستاني[1]
■ مراجعة: علي ملّي[2]

ملخّص

إنَّ محلَّ اهتمام هذا البحث هو تحرِّي ولادة الإمام المهدي (عليه السلام)، من خلال نصوص أهل البَيت (عليهم السلام)، وإمامته حيثُ إنَّه الإمام الحاضر، الذي يَلزم الإذعانُ به، والاستعدادُ لظهوره، إلا أنَّه اشتملَ على المبادئ العامة لإثبات إمامة أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) بشكل عامّ، وسيرةِ سائر الأئمّة (عليهم السلام) في الإرشاد إلى إمامة الإمام اللاحق.

والمُوجب للاهتمام بهذا البحث وفقَ قواعد الدِّين وجوهٌ ثلاثة:

■ الأول: ضرورةُ التحرِّي عن المُصطفَينَ من أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمة، والإيمان بهم، فإنَّ ذلك من تمَام الدِّين.

■ الثاني: أنَّه (عليه السلام) هو الإمام الفعليُّ لهذه الأمة وفق الدِّين، فيَجب محبّتُه والولاءُ له، وقد جاء أنَّ "مَن ماتَ ولم يَعرفْ إمامَ زمانه ماتَ ميتةً جاهليّةً"[3].

■ الثالث: أنَّه (عليه السلام) هو المَهدي الموعود من هذه الأمّة، وذلك يَقتضي الاهتمامَ بمعرفته حيث كان الإنباء بهذا النَّبأ في الدِّين من أجل إيمان الناس به مسبقًا قبل ظهوره وإذعانهم به عند ظهوره.

الكلمات المفتاحية: الإنباء بالمَهدي، الأبعاد، الخصائص، ضرورات المنهج، الأساليب الذكيَّة.

1 - أستاذ البحث الخارج في حوزة النجف الأشرف.
2 - باحث من لبنان.
3 - وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج16، ص246.

بطاقه الكتاب

الكتاب: الإمام المهدي في مدرسة أهل البيت (منهج البحث والتحرِّي في شأن الإمام المهدي)
المؤلف: السيد محمد باقر السّيستاني.
الصَّفحات: 182صفحة.
دار النَّشر: (لا ناشر) غير مذكور.
سنة النَّشر: الطَّبعة الثَّانية 1443هـ - 2022م.

• • •

مقدمة

يَشرع الكاتب بدايةً في مناقشة مَنطق البحث وقواعد التحرِّي، عامدًا إلى بسط المَنهج المُعتمَد في أصل البحث ضمنَ ثلاثة مطالب:

- الأول: يَتناول سيرةَ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في بيان إمامة الإمام اللاّحق وَفق الدلالات التاريخية المَطلَب والرِّوائية.
- الثاني: في منهج أهل البيت (عليهم السلام) في بَيان ولادة الإمام المهدي ووجوده وإمامته وَفق الدلالات التاريخية والرِّوائية.
- الثالث: في أمور تتعلَّق بظهور الإمام (عليه السلام) قد تُثير التباسًا حولَها.

ومن خلال التَّمهيد وبيان المَطالب يُحدِّدُ الكاتبُ منهجًا موضوعيًّا علميًّا من خلال أدلّةٍ عَقلية وقُرآنية وروائية، يمُكِنُ تَلخيصُ معالمها الرئيسية كالتالي:

أولًا: التَّمهيد

تناولَ الكاتبُ مجموعةً من العناوين التأسيسيّة تتعلَّق بأصل فكرة المُخلِّص:

1 - أصل الإنباء بالمَهدي(عج)

قرَّر الكاتبُ مجموعةً من الحقائق التي تُثبِتُ أنَّ الوَعدَ بالمَهديِّ المُصلِح أمرٌ بديهي وواضح للغاية على المستوى الشِّيعي الإمامي، بل هو من جُملة مباني هذا المَذهب، كما أنَّه ثابت على الإجمال في المستوى الإسلامي العام، كما ورد في المُستوى الدِّيني العام أيضًا، ولنذكر إشارة إلى ذلك في كلٍّ من المستويات الثلاثة:

أ - على المستوى الشِّيعي الإمامي

على هذا المستوى فالنَّبأُ بديهيٌّ من المنظور الرِّوائي والتاريخي، منذ القرن الثاني الهجري، عند الشِّيعة الإماميّة، بل عند عامّة الشِّيعة، بالنَّظر إلى كثرة الأخبار عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، حتى قامَت ثورات عديدة في العُصور الأولى بهذا العنوان.

ب - على المُستوى الإسلامي

وأمَّا على المستوى الإسلامي العامِّ فيَبدو نهوضُ الدَّليل الرِّوائي عليه بوضوح على وجهٍ مُتَّفَقٍ عليه بينَ المُحدِّثينَ من أهل السُّنّة منذ القرن الثاني، وذلك بالنَّظر إلى كثرة الأحاديث التي كانت مُتداوَلةً خلال ذلك القرن، وهي مَحكومٌ عليها عندهم بالصِّحة، بل صرَّحَ جماعةٌ منهم بتَواتُرِها، وهذا يَعني قَطعيّتَها.

ج - على مستوى الرسالات السابقة قبل الإسلام

وأمَّا على المستوى الدِّيني المُتأصِّل لما قبل الإسلام، من الرِّسالات الإلهية، فيَبدو أنَّ التَّنبُّؤَ بمُصلِحٍ يأتي في آخر الزمان مما جاء الوَعدُ به في الرِّسالات السابقة، واتَّفقَت عليه الرِّسالاتُ السَّماويّة، والأديان الوضعية، ولا يُستبعَدُ أن يكون وجود هذا النَّبأ، في الديانات الوضعية، من بقايا رسالة حَقّةٍ ضاعَت معالِمُها وتَشوَّهَت عقائديًّا تدريجيًّا.

2 - أبعادُ هذا النبأ وأهمِّيتُه والحكمةُ الإلهية منه

يَستدلُّ الكتابُ بعدةِ مقدِّمات لتأييد ما ذهب إليه، منها:

- الحكمة الإلهية في السَّير الغائي للخَلق والتاريخ تُحتِّم بموجب العناية الإلهية تَغليبَ العَدلِ وانتصارَ الحقِّ في آخر هذه الحياة.
- الاستجابة للتَّطلُّعات الفطرية للبشرية، وأملُها في تَعميم الهدى والحقِّ والعَدل، والتي تتبع قاعدةً مُطَّردةً، أنَّ كلَّ ما به كمالُ النفس، وتَشعر الفِطرةُ بنَقصه والانجذاب إليه فهو قطعًا موجودٌ بالخارج.

أنَّ هذه الحيـاة في المَنظور الإلهي والدِّيني إذا نظرنا إليها نظرًا كليًّا شـاملاً بمختلف مراحلها وجدنا أنَّها مضمار صراعٍ بين الحقِّ والباطل على مدار التاريخ الإنسـاني، فأراد الله سـبحانه أنْ يَجعلَ الغَلَبة في النِّهاية للحقِّ، كتعبير عن أنَّه لن يَسـتقرَّ إلا الحقُّ، ولن تكون العاقبةُ إلا للهُدى والرَّشاد: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

أن يكـونَ ظهورُ الحقِّ في آخـرِ الزَّمان دليلاً على القدرة الإلهية في مسرح هذه الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105].

أنَّ من غايات هذا النَّبأ أن يكونَ وَعدًا مَقطوعًا به لأهل الحقِّ بانتصارهم على الباطل، كي يَعملوا لأجل الحقِّ في أوضاعهم الصَّعبة على طول التاريخ، وليَعلَموا أنَّ هذه المَساعيَ لن تَذهب هباءً، وسوف تُؤدِّي إلى غلبة الحقِّ في النِّهاية وَفق السُّنَن، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49] وقـال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

3 - الحكمة في بثِّ نبأ المهدي (عج) في الدِّين قبل تحقُّقه

إنَّ الحديثَ عن المهديِّ يندرجُ ضمنَ ظاهـرة معروفة في الأديان، وهي الوَعدُ والإنباءُ بالعباد المُصطفَـينَ، قـال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْـنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًـا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُـولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْـمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِـحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: 6]، وجاء عن أمير المؤمنين (عليه السـلام): "ولَمْ

يَخْلُقُهُ من نَبيٍّ مُرسَـلٍ، أو كتابٍ مُنـزَلٍ، أو حُجّةٍ لازمةٍ، أو مَحَجّةٍ قائمة... إلَى أنْ بَعثَ اللهُ سبحانه مُحمَّدًا رسولَ الله (ص) لإنجاز عِدَتِه، وتمَامِ نُبوَّتِه، مأخوذًا على النَّبيِّينَ مِيثاقُه، مَشهورةً سِماتُه"[1].

4 - خصائص الإمام المهدي (عج)

كما جاء في التَّوراة الإنباءُ بعيسى بن مريم (عليه السلام)، مع ذِكر خَصائصَ تنطبق عليه، كذلك جاءَ الإنباءُ بالنبيِّ (ص) في التَّوراة والإنجيل، مع خصائص إضافية مُساعِدة على تَحديده، حتى ذُكِرَ أنَّ اليَهود الذين جاؤوا إلى شبه الجزيرة العربية، وخاصة مَن أحاط منهم بالمدينة، إنَّما جاؤوا يتلمَّسون هذا النبيَّ (ص)، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 146].

وهنـاكَ خصائص مُحدَّدةٌ وردَت في نصوص نبوية، رَواها جمهورُ المسـلمين، منها ما يتعلَّق باسـمه، ومنها ما يتعلَّق بنسبه، ومنها ما يتعلَّق بترتيبه من الأئمة بعد الرسول (ص)، وهذه علامة مُستنبَطة وَفق ما رَواه جمهور المسلمين، لأنَّهم رَوَوا أنَّه يكون بعدَ النبيِّ (ص) 12 خليفة، ورَوَوا أيضًـا ما يُفيد كونَ المَهدي إمامًا قائمًا بالحقِّ، وضمُّ هاتين الرِّوايتَين يَنتج عنه أنَّ المَهدي (عج) آخِرُ الخُلفاء الاثني عشر، وقد صرَّح بهذا الاستنباط جماعةٌ من مُحدِّثي أهل السُّنة. ومنها اقترانُ نزول عيسى بن مريم (عليه السـلام) مع ظهوره (عليه السـلام)، ليكون حُجّةً على أتباعه. وهناك علاماتٌ وردَت في النُّصوص تقعُ في زمان ظهور الإمام (عليه السـلام)، أو قُبَيلَ ظهوره، تَصلُح دليلاً على حَقّانيّته.

5 - تَعيين المَهدي عند الشيعة الإمامية

يتميَّزُ المذهب الإماميُّ بتعيين الإمام المَهدي في شخصٍ بعينه من أهل البيت (عليهم السلام)، وهو الإمام محمد بن الحسن العسكري (عليه السلام)، والإمام العسكري (عليه السلام) هو الإمام الحادي عشر في سلسلة أئمة الشِّيعة الإمامية، وقد تُوفيِّ سنه (260) هجري.

إنَّ من الضروريِّ، للخَوض في عامّة مباحث الإمامة، وفي مبحث الإمام المهدي (عليه السلام)

1 - الشريف الرضي: نهج البلاغة، ج1، ص24.

بشـكل خاص، بيانَ منهج البحث والتحـرّي، لأنَّه يُركِّز على تنقيح الأُسُـس الفكرية التي تُبتنى عليها المباحثُ العقائدية بشـكل تتَّضح مَتانتُها وسلامتُها، فإذا عَرفَ الباحثُ تلكَ الأُسُس التي تُبتنى عليها الدَّلائلُ المُقامة على وجه واضح اتَّضحَت له مَتانةُ تلك الأدلّة، واندفعَت عنها وجوهُ الشُّبهةِ والالتباس.

ثانيًا: المدخل في منهج البحث والتحرّي في شأن القضية

1 - أبعاد مختلفة لقضية الإمام المَهدي تَقتضي كلٌّ منها منهجًا ملائمًا

فتـارةً يكونُ الموضوعُ ذا طابـعٍ مادّيٍّ، وأخرى يكـون ذا طابع عقلي، وثالثـة يكون ذا طابع اجتماعي، ورابعة يكون ذا طابع إيماني، وخامسة يكون للموضوع أبعادٌ مُتعدِّدة، تاريخية وطبيعية وإيمانية وغيرها. وهذه قاعدة بديهية للغاية، معروفة في علم مناهج العلوم، وكثيراً ما يقع الخطأُ في الاستنتاج من جهة معالجة موضوعٍ بمَنهجٍ لا يُناسِبُه.

لذلك فإنَّ موضوعَ الإمام المهديِّ (عليه السلام) وولادته وغَيبته ذو أبعاد مختلفة.

- فقد يكون بعضُها طبيعيًّا، مثل مَدى جواز طول عمر الإنسان بحسب سُنن الطبيعة.
- وقد يكون بعضُها الآخر إيمانيًّا، مثل ما يتعلَّق بوجود تنبُّؤات دينية جازمة حولَ الإمام المهدي (عليه السلام) وولادته.
- وقد يكون بعضُها الثالث تاريخيًّا، مثل الثُّبوت العَيني والاجتماعي لحادث الولادة.

2 - ضرورة الموازنة بين المؤشرات المختلفة

تكون الموازنـةُ في الموضوع الواحد على أكـثر أجزائه إحكامًا ووُثوقًا، وهـذه نقطة منطقية وفِطرية على الإجمال، يَجدُها عامّةُ العُقلاء الرّاشـدينَ، ولأجـل ذلك فإنَّ غَرابةَ فكرةٍ لذاتها من جهة نُدرتِها ومُخالفتها للسُّـنَن الغالبة، أو لأيِّ سبب آخر لا تُسوِّغُ المبادرةَ إلى التَّشكيك فيها أو إنكارهـا. وكذلك نجد أنَّنا نُؤمن بما يَرِدُ في الدِّين ونُصوصـه كالقرآن الكريم من أمور غَريبة من قَبيل وجود المَلائكة والشَّياطين والجنّ، ومعجزات الأنبياء، وجُملة من أحوالهم الخاصة، مثل ولادة عيسى (عليه السـلام) من غير أَب، ورَفعه إلى السَّـماء، وليس ذلـك إلا لأنَّ الثِّقة بالقران الكريم ثقةٌ مُؤكَّدة للغاية.

وعلى هذا الأساس فإنَّ استغرابَ نبأ المَهدي، وتَعيينه في الإمام محمد بن الحسن العسكري (عليه السلام)، من جهة غَيبته وطُول عُمرِه لن يَصلُحَ دَليلاً نافيًا لهذه الفكرة أو مُؤشِّرًا مُريبًا فيها، ما لم يَستحضِرَ الباحثُ حجمَ المُؤشِّرات والشَّواهد على ذلك، وَفقَ قواعد تحقيق حدثٍ من هذا القَبيل.

3 - ضرورة الانطلاق من الثوابت المُفترَضة للموضوع

إنَّ مـن الضَّروريِّ منطقيًّا، في البحث عن كلِّ موضوع، استحضارَ المبادئ التي يَنطلق منها البحث والثوابت التي يُعترَف بها مُسبقًا، والموارد الأخرى المُماثلة والمشابهة التي وقع الإقرارُ بها، وملاحظة مدى غرابة الفكرة أو استبعادها في ضوء تلك الأصول، وإلا كان الاستغراب أوليًّا غير ذي قيمة علمية بتاتًا. ونحن نلاحظ غرابةَ فكرة ولادة الإمام المَهديِّ (عليه السلام) في سرِّيّة تامّة، وحياته غائبًا عن الأنظار، عدا أشخاص مَعدودينَ كالسُّفراء الأربعة الذين نصَّبهم الإمامُ المَهديُّ (عليه السلام)، وطول عُمرِه إلى ما يَقرب من 1000 ومائتي سنة، أن نتأمَّل المُنطلَق الذي نَنطلِقُ منه، وفيما يأتي عرضٌ لأربعة مُنطلَقات:

- إنكار نبأ المَهديِّ (عج) من مُنطلَق عدم الإيمان بأصل الدين: إنَّ الاستبعاد النّاشئ من مثل هذا المُنطلَق يكون مُبتنًى على مبدأ استحاله نقد العلَل المادية المُتعارفة، وعدم الثِّقة بأيِّ تاريخ يَرِدُ بخلاف ذلك، واتِّهامه بكونه حديثَ خرافة، وهذا استبعاد يتَّجه إلى أصل الدِّين والرِّسالات وما تَنطوي عليه.
- إنكار نبأ المَهديِّ (عج) من مُنطلَق نَفي حَقّانية الإسلام: وهنا تُبتنى جملةٌ من بحوث المستشرقين المؤمنين بالتَّوراة أو بها وبالإنجيل جميعًا.
- إنكار نبأ المهدي (عج) من مُنطلَق إنكار اصطفاء أهل البيت (ع): وهذا هو مُنطلَق جمهور علماء السُّنة، فهم يُنكِرونَ أيَّ أمرٍ مَبنيٍّ على اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) للحُكم، وامتيازهم في العلم، وتميُّزهم بالعِصمة والتَّسديد، وهذا يُعتبرَ تعسُّفًا من المَنظور التاريخيِّ، كما أوضحناه في مباحث الاصطفاء وبَحث واقعة الغَدير.
- نبأ المهدي (عج) على أساس اصطفاء أهل البيت للإمامة في الدِّين: الإذعان بمبدأ اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الإسلام، كما اصطفى الله سبحانه من قَبلُ

إبراهيمَ وآلَ إبراهيم (عليه السلام)، إلا أنَّ أهل البيت لَيسوا أنبياء، كما جاء في الحديث النَّبوي المعروف بحديث المَنزلة.

ويَجوز وفق هذه القواعد في شـأن أهل البيت (عليهم السـلام) ما جـاز على المُصطَفَينَ من الأنبياء وغيرهم، عدا نُزول وحيِ النُّبوّة والرسالة الذي تتميَّزُ به النُّبوة، وأما غيرُه كالذي اتَّفق لمريم أمِّ المسيح (عليهما السلام) فلا مانعَ من ثبوته لهم (عليهم السلام)، بل قد وردَ في كتب الإماميّة وأخبارهم ما يُثبتُ كونَهم من المُحدَّثين.

وقد جاء في تاريخ الإمامية أنَّ الإمام الجَوادَ تولَّى الإمامةَ ولم يَتجاوز عمرُه ثمانيَ سنوات، وهو نظير ما ورد في القرآن الكريم في شأن يحيى بن زكريا (عليه السلام)، قوله تعالى: ﴿**يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ [مريم: 12].

4 - خطأ استغراب الفكرة بعد الانتباه إلى مُنطلَقها

من الخطأ ممَّن يَرى حَقّانيّة المذهب الإماميّ مُبدئيًّا، ويرى سلامةَ انتمائه إلى الأئمة المعروفين، من الإمام علي (عليه السلام) حتى الإمام العسكري (عليه السلام)، أن تُثير استغرابَه فكرةُ الإمام الغائب المَستور والمَغمور، ويتعامل مع شواهده على أساس المُنطلقات الثلاثة الأولى، كما أنَّه من الخطأ أن يُناقِش الآخرون هذه الفكرةَ من المُنطلقات الثلاثة الأولى، لأنَّ تلك المُناقشات في الحقيقة إمّا معَ أصل الدِّين والرِّسـالات كلِّها، أو معَ الإسلام بكلِّ ما فيه، أو مع مذهب اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام).

ويمُكِن أن نُعبِّرَ عن هذا المعنى بأنَّ لهذه المعلومة بُعدًا إيمانيًّا عامًّا، مُتفرِّعًا عن القَبول بالدِّين والرِّسالات على الإجمال، وبُعدًا إيمانيًّا خاصًّا، مُتفرِّعًا عن القبول بدين الإسلام على الخصوص، وبُعدًا إيمانيًّا أخصَّ، وهو القَبول باصطفاء أهل البيت في الإسـلام، إنَّ هذه المعلومة هي جُزئيّةٌ من جزئيات أصـل الإمامة عند الاثني عشرية، ومثلُ هذه الجزئيـات والتفاصيل إنما تُدرَس في ضوء أصولها لا مُنفصِلةً عنها.

5 - ضرورة الإحاطة المناسبة بالتاريخ

من المعلومِ أنَّ جُملةً من أمور الدِّين هي معلومات تاريخية، يمُكِنُ التحقُّق منها بتلك الأدوات،

كما هو الحال في أصل وجود النبي محمد (ص) وتبليغه رسالته، ومحاربته للمشركين، ومجيئه بالقرآن الكريم، وكذلك نعتقد بحفظ القرآن الكريم بنَصِّه دون تَحريف أو نقيصة، وعندما تكون المسألة التاريخية ذاتَ علاقة بتفاصيل تختصُّ بالمجتمع الإماميِّ فلا بدَّ في التَّحرِّي والبَتِّ فيها مِن الاطِّلاع على تفاصيل التاريخ الإمامي، والتي لم يكن التاريخ الإسلاميُّ مَعنِيًّا بها كثيراً.

6 - ولادة المَهدي مسألة تاريخية في داخل المذهب الإمامي

قـرَّر الكاتبُ مجموعـةً من الأصول التي تُعتـبرَ بديهيةً من المُنطلَق التاريخي الإسـلامي أو الإمامي مثل:

- أصل استمرار الإمامة في أهل البيت (عليهم السلام).
- توجيه كلِّ واحد من أئمة أهل البيت الشِّيعةَ إلى الإمام الذي بعدَه طيلةَ قَرنَين ونِصف توجيهًا مناسبًا ومُوجبًا للإذعان، وعدم إرجاع الإمام العسكري بحسب التاريخ إلى أيِّ شخص آخر غيرِ ولدِه.
- تعامُل السُّلطة العباسية مع الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) والد المَهديِّ (عليه السلام) كقائد دينيٍّ وسياسيٍّ ورُوحيٍّ كانَت السُّلطةُ تَحذَرُ من قيامه بثورة ضدَّها، فهذه بَديهة تاريخية واضحة، وتُساعد على فهم سببٍ من أسباب غَيبة الإمام (عليه السلام) منذ البداية.

7 - ضرورة الاطِّلاع على المجتمع الإمامي ودراسة مُقوِّماته واهتماماته وتراثه

من المعلوم أنَّ أدوات هذا الإقناع تكون إلى حدٍّ كبير أدوات داخليةً، فإذا لم يَستطع الباحث الانتبـاهَ إلى ذلك فمِن الطَّبيعي ألا يصلَ إلى نتيجة ملائمة، ويُخطِّئ الواقع، ويَذهب ذهنُه بعيدًا في احتمال الزَّيف والخداع والتلبيس من قِبل جماعةٍ مُعيَّنة، كما يقع في بعض الحركات السِّرية.

نعم من المَعقول أن يَتوقَّعَ الباحثُ وجودَ شواهد في التاريخ الإسلامي العامِّ، عن سلوك قادة أهل البيت (عليهم السلام) لهذا الخط، نظرًا إلى أن أئمّةَ أهل البيت كانوا يُعنَونَ بمدارات الخطِّ السِّياسي للسُّلطة ومَدارات الخَطِّ العام للمسلمين المُنحرف عن اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام)، إضافة إلى اعتنائهم بألّا يكون الشيعة جماعةً سِرِّية باطنية غامضة في انتمائها وإعلامها وكُتُبِها وحُجَجِها،

بل كانُوا يَسعون إلى أن يكون هذا الخطُّ واضحًا ومشهودًا ومَبنيًّا على تحرِّي العلم والصِّدق، بحيث يَصلح لهداية المُتبصِّرين. والواقع أن هناك شـواهدَ مقبولةً فعلاً في التاريخ الإسـلامي العامّ على مصداقية هذا الانتماء إلى هؤلاء الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) ومن جمله تلك الشواهد:

- الوقائع السياسية المعلومة.
- أنَّ من الواضح تاريخيًّا أنَّ الشيعة الإمامية، المعاصرين لهؤلاء الأئمة القادة، كانوا يَرتبطون بهم ويُساندونَهم ويَعتقدون باصطِفائهم من هذه الأمة.
- أنَّ الشَّواهد التاريخية الواضحة تدلُّ، من خلال كتبِ التَّراجم والرِّجال، وفهارس الكتب المؤلَّفة في العصور الأولى، مثل فهرست ابن النديم، والتراث التاريخي المُتبقِّي منها، على أن المجتمع الإماميَّ كان ذا علم وفِقهٍ وتَشريع وحديث وإسناد ونَقد وتمَحيص.

ويمُكن تلمُّس هذه الحركة بشكل بيِّن منذ القرن الثاني الهجري، ونَعني به عصر الباقر والصادق (عليهما السلام)، والمُهِمُّ أنَّ البحث عن ولادة الإمام المهديِّ (عليه السلام) يَنبغي أن يكون من هذه المُنطلَقـات التي هي البيئة الداخليـة للمجتمع الإمامي، وعليه فمن الخَطأ مناقشـةُ فكرة المَهدي على أساس نَفي تبوُّؤ أهل البيت قيادة المجتمع الشِّيعي.

8 - ضرورة الانتباه إلى خطورة موقع الأئمة القادة من أهل البيت (عليهم السلام)

من الضروري الانتباه في مقام البحث عن ولادة الإمام المهدي ووجوده إلى نكتة تاريخية وفكرية مُهمّة، وهي أن موقعَ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) من الإمام علي (عليه السلام) ومَن تولَّى الإمامةَ بعدَه في هذا الخطِّ العلويِّ الفاطمي كان مَوقعًا خطيراً وحسّاسًا جدًّا من المنظور الدِّيني والسِّياسي؛ لكونهم معارَضةً سياسية للسلطة، وقيادةً بديلة تَرى هي وأتباعُها انحصار المَشروعية بها، ومعارَضة دينية لاتِّجاه الخلافة بعد النبي (ص) الذي كان عليه أغلبُ المُسلمين. وتتمثَّل الخُطورة بثلاثة وُجوه، وهي: الخطورة السِّياسـية والدِّينية والقَبَليّة، في الاعتقاد باصطفاء الأئمة (عليهم السـلام).

9 - تعويل أئمة أهل البيت (عليهم السـلام) في بيان من يخلفهم على الأساليب الذكية البيانية والاجتماعية

من خلال متابعة ثوابت تُراث أهل البيت (عليهم السلام)، وسيرتهم العامة، وأصداء شخصياتهم

لدى سـائر المسلمين، في أنَّ الأئمة من أهل البيت، بعدَ الإمام الحسين، لم يكونوا بِصَدَدِ القِيام بالثَّورات المسلحة؛ وذلك لغَلَبَةِ الشُّبهة واسـتقرارها لدى الاتِّجاه الغالب للمسلمين؛ حيث إنَّ هـذا الاتجاه لن يُقدِّسَ أحدًا بعد الإمام الحسـين، الذي كان مَنصوصًا عـلى موقعه المُميَّز من رسـول الله (ص)، بل كان المُهمُّ في تشخيصهم في تلك المرحلة هو تأسيس تراثٍ جامعٍ، وَفق أُسُـس أهل البيت (عليهم السلام) في العقيدة والفقه والتَّفسير والأخلاق ثم الاهتمام بتَنمية هذه العلوم بينَ المؤمنين.

ولأجل ذلك كلِّه كان أئمّةُ أهل البيت يَعتمدون في مقام تحديد الإمام اللاّحق، المُعيَّن من الله تعالى، أساليبَ ذَكيّةً تُؤدِّي المقصودَ، وتُفهم الجمهور الذين يَرجعون إليهم، ولكنَّها مع ذلك لا تُعطي مأخذًا سريعًا للسلطة.

10 - أسلوب الصادق (عليه السلام) في الدلالة على خليفته

نجد أنَّ الإمام الصادق (عليه السلام)، عندما تناول مسألةَ مَن يتولىَّ الأمر من بعده، عمدَ إلى أسلوب خاصٍّ في الدلالة على الإمام الكاظم، بشكل يجعل الأمرَ يتَّضِحُ تدريجيًّا بعد مرور فترة من الزمن، كما أن المَنصور تعقَّب مَن يكون وَصِيًّا للإمام الصادق، وكان (عليه السلام) قد أوصى وصيةً مُعلَنةً إلى خمسة أشخاص.

وهناك عدة أساليب منها:

- تنوُّع الدلالات الذَّكيّة التي استخدمَها الأئمة (عليهم السلام) لتَعيين الإمام اللاّحق.
- تأكيد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) على الشِّيعة في فَهم المعاريض واللَّحن.

فعن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: "إنَّا لا نعدُّ الرَّجُلَ فينا عاقلاً حتى يَعرِفَ لَحنَ القَول ... ثمَّ قرأ هذه الآية: (ولَتَعرِفَنَّهُم في لَحنِ القَول)[1]"[2]، والواقع أنَّ هذه الحالة على العموم أمرٌ متعارفٌ لدى العُقلاء والنّابهينَ في الظُّروف الحرجة، على أنَّ الأئمةَ (عليهم السـلام) راعَوا وعملوا على ألاّ تكونَ هذه الجماعةُ مُنظَّمةً سرِّيةً مُغلَقةً، يَرأسُها أشخاصٌ مُحدَّدونَ يَنتسبون إليهم، ويتعلَّمون في كتب سِرِّيةٍ يَتداولُها خواصُّهم، كما وقع ذلك في الإسماعيلية والغُلاة؛ فإن هذه طريقةٌ تُؤدِّي

1 - سورة محمد، الآية 30.

2 - وسائل الشيعة، ج16، ص203.

إلى غياب الحُجّةِ، والوُقوع في الضَّلالة، وانتشار البِدعة واستساغةِ الوَضع القائم.

11 - ضرورة الانتباه إلى معايير الوثوق التاريخي والروائي

أشــار الكتاب إلى عــددٍ من المعايير الضَّرورية عنــد تناول القضية مَحــلِّ البَحث من الزاوية التاريخية:

- التأصيل الفِطري للحاجة إلى الحُجّة المَوثوقة.
- تنوُّع الثُّبوت إلى الثُّبوت الاجتماعي والفَردي ومَناطِهما.
- تنويع المُؤشِّرات إلى أنواعٍ مختلفة منها الأحادية والتَّراكمية.
- تنويع المُؤشِّرات إلى بَديهيّةٍ ونَظريّة.
- تنويع المُؤشِّرات إلى مباشرة وغير مباشرة.
- وكثيرٌ من الأمور اليَقينيّة التي نُذعِنُ بها تَستند إلى أدلّة غير مباشرة، وقد يُعَدُّ من هذا الباب العلمُ بقدرة الله سبحانه على إحياء المَوتى، لأنَّنا إنَّما نعلم بها من باب ملازمتها لقُدرته على أمور أخرى صدرَت منه سبحانه، مثل خلق الكائنات عَن العَدَم.

12 - نوع المُؤشِّرات القائمة على ولادة الإمام المهدي (عليه السلام) ووجوده

تناول الكتابُ أنواعًا من المُؤشِّرات الرِّوائية على وجود الإمام المهدي (عليه السلام)، منها:

أ - المؤشرات الرِّوائية المباشرة

وهي المُؤشِّراتُ التي تَحكي عن إطّلاعِ الإمامِ العســكريِّ (عليه السلام) جَمْعًا مَحدودًا على ولده، وهي روايات يُمكِنُ الوُثوق بها من حيث الإسناد.

ب - المُؤشِّرات الرِّوائية غير المباشرة

وهي المُؤشِّرات التي تَحكي أخبارًا عن ولادة الإمام المهدي (عليه السلام)، ومنها:

- المُؤشِّرات التأريخية والاجتماعية بأقسامها.
- مُؤشِّرات عامّةٌ ذَكيّةٌ وحاصرة كانَت مُتاحةً بشكل تاريخي واضح ومفهوم للمجتمع الإمامي إلى حدٍّ كبير، بل كانَت قد أرسلَت خصائصها في ضمن أصول الإمامية ونظام الإمامة بشكل عميق.

■ مُؤشِّرات خاصّةٌ تمثَّلَت في نَصْب وُكَلاءَ أربعةٍ مُتعاقبينَ طيلة 70 سنةً تَقريبًا كانوا وُسَطاء بينه (عليه السلام) وبينَ وُجوه الشِّيعة.

ج- المُؤشِّرات العامة الحاصرة:

أ- مبادئ عامة وهي عدة أمور:

1. استمرار اصطفاء أهل البيت (ع) بعد النبي (ص) حتى قيام الساعة.
2. كون الإمامة في الأبناء بعد الآباء بعد الحسين (ع).
3. جريان سيرة الأئمة من أهل البيت (ع) وَفقَ وظيفتهم الإلهية إدلال شيعة الإمامية إلى الإمام اللاحق بالدلالات الوافية.
4. وجود المَهديّ من أهل البيت (ع) في ضمن هذه السِّلسلة القيادية الواردة في الأحاديث النَّبوية وغيرها من الرِّوايات.
5. تحقُّق غَيبة المهدي من أهل البيت (ع) المَوعود بها في الرِّوايات.

ب- عدم إرشاد الإمام العسكري (عليه السلام) إلى أيِّ شخصٍ آخَرَ في الإمامة عدا ولده المَهدي (ع).

ت- تعقُّب السُّلطة العباسية مَن يُمكِنُه أن يَتصدَّى للإمامة في هذه السِّلسلة القيادية من أئمة أهل البيت(ع)، والمهديّ منهم بشكل خاصٍّ، فهذا الأمر يُوضِّحُ المُلابسات الباعثة على عدم الحضور المُعلَن للإمام (عليه السلام) مثل آبائه، لأنَّه سيكون مِثلَهم عُرضةً للسجن والرَّقابة والقتل.

وفي ضوء ما تقدَّمَ ومن خلال هذا العرض الإجمالي تتَّضح عدة أمور:

1. أنَّ إثبات ولادة الإمام (عليه السلام) ووجوده ابْتُنِيَ على أصول راسخة، ومناهج ثابتة، وظواهر واسعة، بالأدوات الاجتماعية والتاريخية، وليست مَبنية على روايةٍ لهذا الراوي أو ذاك.
2. أن ولادة الإمام (عليه السلام) ووجوده وقيادته أصبحت في حينه، وفق المُؤشِّرات المُتقدِّمة، من الأمور الواضحة في المجتمع الإمامي، بطبقاته المُتعدِّدة والمُختلفة والواسعة، وكانَت هذه الأمورُ مُستندةً إلى ظواهر تاريخية واجتماعية مشهودة وكبيرة، يقف عليها الخاصُّ والعامُّ والمؤالف والمُخالف.

3. أما ثبوت ولادة الإمام (عليه السلام) فلا تُؤثِّر في تفاصيل المناهج والآراء المختلفة للمُحدِّثين وعلماء الجَرح والتَّعديل، ولا يُبتنى على رأي أو منهج خاصٍّ أبدًا.

13 - التوصيف العام للمجتمع الإمامي في زمان الإمام الحسن العسكري (عليه السلام).

عــدَّد الكتابُ عددًا من الظَّواهر في المجتمع الشــيعي من المُحال معها إيمانُه بولدٍ "مُختلَق" للعسكري (ع)، منها:

- لا مركزية المجتمع الشِّيعي.
- استقرار جمهور الشِّيعة على المذهب بعد وفاة الإمام العسكري (ع).
- بناء الاعتقاد الإمامي على الوضوح في القيادة.
- جَرْيُ المجتمع الإمامي على التثبُّت في النَّقل عن الأئمة (ع).
- تعدُّد أطياف المجتمع الإمامي.
- انفتاح المجتمع الإماميِّ على البحث والمناقشة.
- أن الشِّيعة الإمامية أهلُ تعقُّل وثقافة وعِلم.
- اهتمام الإمامية بالتثبُّت في مسألة الإمامة.

ثالثًا: المنهج العام للأئمة السابقين (عليهم السلام) في الدلالة على الإمام اللاحق

ضمن الظُّروف التي سبق ذِكرها فإنَّ التَّصريح لم يكن مُتوقَّعًا بحال، فلم يكن أمرًا مُمكِنًا، وقد كان الأئمةُ أرسَوْا مَنهجًا واضحًا لمعرفة الإمام من خلال عدّة تدابير منها:

- توجيه اهتمام الإمامية إلى التثبُّت قبلَ الإذعان بالإمامة، وكان لذلك عواملُ عِدّةٌ.
- تفصيل مَنهجِ التَّثبُّت حولَ الإمام الذي أرشدَ إليه أهلُ البيت (عليهم السلام).

وتناولَ الكاتبُ المنهجَ الذي عوَّلَ عليه الأئمة (عليهم السلام) في الدلالة على الإمام اللّاحق وفصَّلَه إلى جزأين:

الجزء الأول: أســاسٌ عامٌّ واضح من النصوص النَّبوية، وكلمات الإمام علي (عليه الســلام)، وهو مُؤلَّفٌ من عناصر ثلاثة:

1. أن يكون من أهل بيت النبي (ص) وعترته.
2. أن يكون منفردًا في العلم والسَّداد والصَّلاح وسائر الصفات.
3. أن ذلك إنَّما يكون في أفراد بأعيانهم من أهل بيت النبي (ص)، وليس في جميع أهل البيت، ولا في أيٍّ منهم ممَّن أرادَ التَّصدِّي للإمامة.

الجزء الثاني: تحديد تَفصيلي للإمام من خلال عدة معايير مثل:

1. الوَصيّة الشَّخصية.
2. الأولوية العُرفية.
3. الفضيلة الجامعة والمُتفرِّدة في العقل والوقار والعلم والدِّين والتَّقوى وسائر الصِّفات.
4. مواريث العلم: وهي على قسمين: الميراث الدِّيني والميراث الإنبائي.
5. لا يُشترط في الإمام من أهل البيت (عليهم السلام) أن يكون ظاهرًا في جميع الأحوال، بل قد يكون مَغمورًا، كما قال الإمام علي (ع): "لا تَخلو الأرضُ مِن قائمٍ لله بحُجّة إمّا ظاهِرًا مَشهورًا أو خائفًا مَغمورًا"[1].

ومع ذلك كلِّه فقد كان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يَذكرون مَن يكون الإمامَ من بعدهم بشكل ظاهر لبعض الرواة، مع توصية مفهومة له بالكتمان والتَّقية، حتى يَظهر الأمرُ في وقته المناسب، وقد انتفعَت الشِّيعةُ بما كان ملائما من هذه الأساليب، بعد استشهاد الإمام العسكري (عليه السلام)، لتحديد إمامة ولده المَهدي (ع).

وهكذا يتبيَّنُ المَنهجُ العامُّ الذي جَرى عليه أئمّةُ أهل البيت (عليهم السلام)، لإرشاد المُجتمع الإمامي إلى الإمام اللاّحق في الظروف الأمنية والسياسية الحَرجة، كما يتبيَّن على الإجمال جَرْيُ الشِّيعة الإمامية على أصول هذا المَنهج على وجه مُلائم في شأن التأكُّد من ولادة الإمام المهدي وإمامته.

1 - الشريف الرضي: نهج البلاغة، ج4، ص37.

خاتمة

تأكَّد للكاتب وبشكل تَفصيلي صِدقَ حَديث ولادة الإمام (ع)، بتَعيينِ وإرشادِ الأئمة من أهل البيت (ع)، على وجه واضح، ومتى تأمَّلَ الباحثُ هذا الموضوعَ، وَفق المنهج التأريخي والرِّوائي المُلائم، وسَلَكَ السُّبُل الموضوعية الضرورية في تحقيق مثل هذا البحث، اتَّضح له ذلك جليًّا.

وقد بيَّنَ الكاتب أنَّ الحاجة للحُجّة حاجةٌ فطريّةٌ ضَروريّةٌ، وَفق الأديان السّابقة، وهي كذلك في الدِّين الإسلامي، من خلال تتَبُّع أصول الدِّين، وَفق منهج قرآنيٍّ وروائيٍّ وعَقليٍّ، وهذا يُمكِنُ الوُصول إليه من خلال منهج مُلائم لهذه القضية، وقد تفرَّدَت الإماميّةُ بمراعاة هذا المَنهج بكلِّ تفاصيله؛ كونه إكمالاً للدِّين وإتمامًا للنِّعمة، كما جاء في الآية الكريمة الدّالة على مَنصب الإمامة وأهمِّيته وخطورته، وكما جاء في شرح هذه الآية في خطبة الغدير، في الواقعة المعروفة (القَطعِيّةِ الصُّدورِ والمُتواترة عندَ جميعِ المُسلمينَ).